# قراءات فى الكتب العربية

— William R. Polk, The United States and the Arab World, (Harvard University Press, 1965).

— Waldemar J. Gallman, Iraq under General Nuri, (Baltimore, Maryland, 1963).

— Dana Adams Schmidt, Yemen : the UnKnown War. (London, 1968).

— Robert L. Tignor, Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914. (Princeton University Press, 1966).

— Emine Foat Tugay, Three Centuries : Family Chronicles of Turkey and Egypt. (Oxford University Press, 1963).

---

يثير كتاب وليم بولك الاهتمام بحكم أن مؤلفه يشترك منذ عام ١٩٦١ فى عضوية مجلس التخطيط السياسى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية ، وأنه يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة — بالإضافة إلى معرفته الوثيقة بالعالم العربى نتيجة للجولات التى قام بها فى شتى ربوع الشرق الأوسط وشمالى أفريقيا . وقبل أن يلتحق بولك بوزارة الخارجية الأمريكية كان يعمل فى هارفارد عضواً بمركز دراسات الشرق الأوسط . كما كان يشغل فى هذه الجامعة وظيفة أستاذ مساعد للغات الشرق الأدنى وتاريخه .

ويبدأ المؤلف كتابه بتقديم صورة عن العرب فى بلادهم ، ويخلص فى النهاية إلى تحليل واضح صريح لمصالح الولايات المتحدة فى العالم العربى وتصور لما ستكون عليه العلاقات العربية — الأمريكية فى المستقبل . والكتاب فى جوهره استعراض عام لتاريخ العرب ، يهدف منه المؤلف إلى أن يستشف من الماضى العوامل التى تشكل الأحداث المعاصرة وهى القانون الاجتماعى والدين وذكريات عصر ذهبى والهوة السحيقة بين المجتمع والدولة .

ويهتم المؤلف بالمؤثرات الغربيـــة فى العالم العربى ، ويرى أنها نقلت العرب

من العصور الوسطى إلى العصر الحديث . كما ينتقل إلى الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى الاستعمار الأوربى للشرق العربى وخلق المشكلة الفلسطينية . ويخلص من ذلك كله إلى تكوين صورة عن الإنسان العربى الحديث من حيث ثورته الاجتماعية ونمو عناصر جديدة فى المجتمع وحدوث تغيرات اقتصادية ، وتطور المفاهيم الخاصة بمكانة العرب فى العالم . وفى النهاية يناقش المؤلف العلاقات بين العرب والولايات المتحدة ، ويحلل المصالح الأمريكية ، ويقدم بعض المقترحات الخاصة بالمستقبل القريب.

وهو فى تحليله للسياسة الأمريكية إزاء العالم العربى ينفى أن الولايات المتحدة تهدف إلى تجميد الأوضاع القائمة فى الوطن العربى برغم ما يشهده العالم من تغيير ، ويرى أن المصالح الأمريكية فى الوطن العربى تتضمن النقاط الآتية :

أولا — الحيلولة دون نشوب صراع قد يؤدى تصاعده إلى خلق موقف خطير بالنسبة إلى الولايات المتحدة . ويعتقد المؤلف أن الهدف الأقصى للولايات المتحدة هو إيجاد سلام عادل ودائم فى المنطقة .

ثانياً — الحيلولة دون وقوع المنطقة تحت سيطرة دولة كبرى معادية للولايات المتحدة . وينفى المؤلف ما يتردد أحياناً من أن الولايات المتحدة تهدف إلى فرض سيطرتها على العالم العربى .

ثالثاً — المحافظة على حق الولايات المتحدة وحلفائها فى المرور الجوى والبحرى عبر المنطقة التى تشغل موقعاً جغرافياً هاماً بين أفريقيا وآسيا وأوروبا لا يوازيه استعمال طريق رأس الرجاء الصالح .

رابعاً — استمرار تدفق بترول الشرق الأوسط إلى أسواق الغرب . ورغم ذلك فإن المؤلف يرى أن بترول الشرق الأوسط قد قلت أهميته عما كانت عليه فى أواسط الخمسينات .

خامساً — تسعى الولايات المتحدة إلى أن تضمن لرعاياها الدخول إلى أسواق الشرق الأوسط ، كما تسعى إلى إقرار الأمن فى المنطقة .

سادساً — إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية بما فى ذلك توطين اللاجئين .

سابعاً — تشجيع الاهتمام بمشاكل التنمية والتطوير الاجتماعى ، وخفض التسلح والتقليل من الإنفاق على المؤسسات العسكرية .

ثامناً — نمو النظم الديمقراطية ، وجعل الغرب موضعاً للحب والتقدير ، وحفز الناس على تفهم أسلوب الحياة الأمريكى والتعاطف معه .

ويختتم المؤلف كتابه بالإشارة إلى خطورة تجدد الحرب بين العرب وإسرائيل[1] وتحبيذ إيجاد تسوية للمشكلة الفلسطينية . فهو يرى أن نشوب الحرب فى الشرق الأوسط ، حتى وإن لم يهدد السلام العالمى ، من شأنه أن يؤثر فى برامج التنمية التى تقوم عليها آمال المستقبل : إذ أن فشل مشروعات التنمية وضغط تزايد السكان من شأنهما أن يؤديا إلى قيام حكومات أكثر راديكالية تسعى جاهدة إلى ضغط النفقات اللازمة لمثل هذه المشروعات . وحينئذ تتعرض المصالح الأمريكية للخطر : فمشروعات التنمية كفيلة ، إذا ما نجحت ، بتوسيع قاعدة الاشتراك فى الشئون العامة وإيجاد ما يشبه الحكومة التمثيلية فى مجتمعات لها مصلحة مقررة فى السلام .

* * *

أما كتاب جولمان عن العراق تحت حكم نورى السعيد ( ١٩٥٤ — ١٩٥٨ ) فقد كتبه مؤلفه بعد أن تقاعد عن الخدمة فى السلك الدبلوماسى . وهو يستند إلى ملحوظاته وذكرياته الشخصية خلال السنوات الأربع التى كان فيها سفيراً للولايات المتحدة فى العراق خلال وزارة نورى السعيد الأخيرة ، وعلى المحادثات التى أجراها مع نورى السعيد وأصدقائه من العراقيين والأمريكان .

ويتناول الكتاب نشأة نورى السعيد ، ويهتم إهتماماً خاصاً بحلف بغداد ، ويعرض لسياسة نورى السعيد الداخلية وموقفه من القومية العربية وإسرائيل ، والمصالح البريطانية والأمريكية فى العراق حتى ثورة ١٤ يوليو ( تموز ) ١٩٥٨ . وتتضح هذه المصالح من التوجيهات التى أصدرها وزير الخارجية الأمريكية للمؤلف لدى تعيينه سفيراً فى بغداد : فقد نبهه إلى ضرورة اعتبار العراق بلداً له أهميته الحيوية

---

(١) صدر الكتاب قبل نشوب حرب الأيام الستة فى ٥ يونيه ( حزيران ) ١٩٦٧ .

فى الشرق الأوسط ، بحيث أن دخوله فى سلسلة المحالفات الغربية إلى جانب تركيا وإيران وباكستان من شأنه أن يشجع بلداناً عربية أخرى على دخول الحلف .

والكتاب فى مجمله نموذج للتقدير الذى حظى به نورى السعيد فى الدوائر الغربية . ولهذا فإن المؤلف لا يرى إلا جانباً واحداً من شخصية نورى وحكمه ، هو جانب التقدير على طول الخط دون محاولة لتفهم وجهات نظر الوطنيين العراقيين — مما جعل ثورة ١٤ تموز تشكل ضربة مفاجئة وعنيفة للنفوذ الغربى فى العالم الغربى — إذ أن أصدقاء الغرب فى العراق ، وعلى رأسهم نورى السعيد والملك فيصل الثانى والأمير عبد الإله الوصى على العرش ، قد قتلوا قتلة شنيعة فى خضم الثورة الجارف الذى برزت خلاله الاتجاهات القومية والعداء للاستعمار الغربى .

ونورى السعيد إنما هو نمط من الساسة العرب القدامى الذين تحكموا فى مصائر الوطن العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ومن هؤلاء الساسة من كان فى البداية متمشياً مع الخط القومى ثم انحاز بالتدريج انحيازاً صريحاً للغرب دون إدراك حقيقى لما جد على الجماهير من اتجاهات وتطلعات ، ومن ثم ازدراؤهم للرأى العام ومحاولتهم كبته . وكان نورى السعيد من هؤلاء ، كما كان مصيره دليلا على أن المدرسة القديمة من الساسة العرب قد انتهت إلى غير رجعة وعلى أن المصارحة بصداقة الغرب أصبحت تصدم الجماهير التى كرهت الاستعمار الغربى ودعاته من الوطنيين — مما جعل مؤلفاً غربياً له وزنه — هو البروفسور برنارد لويس [1] ، شديد التشاؤم بشأن العلاقات العربية — الغربية ، وبشأن مصير أصدقاء الغرب فى الشرق الأوسط .

* * *

أما دانا آدم سمث الذى كتب عن حرب اليمن المعاصرة فقد بدأ نشاطه فى الشرق الأوسط فى عام ١٩٤٤ حين أصبح مراسلا لوكالة اليونايتدبرس ثم لجريدة النيويورك تايمز . وبحكم عمله أمكنه فى فترة قصيرة أن يتعرف على كثير من بلدان الشرق الأوسط ، حيث أولع بوجه خاص بأكثر شعوبه غموضاً ، على اعتبار أن لمستقبلها دلالته الحاصة

---

(١) The Middle East of the West.

(٢) ينهى المؤلف عرضه باتفاقية الخرطوم ( ٣١ أغسطس ١٩٦٧ ) التى نصت على جلاء القوات المصرية عن اليمن .

بالنسبة إلى مصير هذا الجزء من العالم . ومن هذه الزاوية نجده يمضى فى عام ١٩٦٢ بضعة أشهر فى التنقل فى شمالى العراق للتعرف على أحوال الأكراد ، وكانت نتيجة هذه الرحلة دراسته عن الأكراد تحت عنوان : "Journey among brave men" والكتاب الذى نعرض له يستند إلى المقابلات التى أجراها المؤلف مع أمراء أسرة حميد الدين الذين تولوا قيادة القوات اليمنية الملكية التى تصدت للقوات المصرية وحلفائها الجمهوريين . ورغم محاولة المؤلف موازنة وجهات النظر الإمامية بالزيارات التى قام بها للجانب الجمهورى ، إلا أن الكتاب لا يخلو من التحيز لوجهة النظر الملكية التى تستند إلى اعتبارات عفى عليها الزمن .

على أن الكتاب لا يتعرض لحرب اليمن دون تمهيد تاريخى . فهو يعرض لتاريخ اليمن منذ أقدم العصور ، وهو مفيد بوجه خاص فيما يتعلق بالدور الذى لعبته بريطانيا فى اليمن . وبعد أن دخلت إلى المسرح قوى جديدة هى مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ، كانت لجلاء بريطانيا عن الجنوب اليمنى آثار هامة بالنسبة إلى سياسة واستراتيجية كل من المعسكرين الشرقى والغربى . ويحاول المؤلف أن يستشف ما قد يتمخض عنه هذا التطور بالنسبة إلى تاريخ اليمن والجنوب العربى .

وبالإضافة إلى كون الكتاب عرضاً من الطراز الأول ، فإنه يستمد أهميته من أن الكاتب بنى عرضه على الاحتكاك المباشر بالأحداث — ومن ثم نجده يلقى أضواء عدة على موضوع لم ينجل كثير من جوانبه ، بحيث أنه يوفر أساساً تاريخياً له وزنه ، وذلك برغم تحامله الواضح على الوجود المصرى فى اليمن من زاوية المصالح الغربية فى الجنوب اليمنى وفى الخليج العربى وفى الشرق الأوسط بوجه عام .

• • •

ويتناول كتاب روبرت تجنور أثر الإدارة البريطانية ( ١٨٨٢ — ١٩١٤ ) فى المجتمع المصرى ، ويعلق أهمية خاصة على الحكومة باعتبارها أداة للتغيير . والفكرة الأساسية التى يبنى عليها المؤلف كتابه هى أن الإدارة البريطانية قد أدخلت إلى مصر المؤثرات الحديثة ، وإن يكن يرى أنها لم تكن تميل إلى طبع المجتمع المصرى بأسره بالطابع الحديث : إذ العكس هو الصحيح فى كثير من مجالات التطور المصرى

الحديث . وقد حاول المؤلف أن يبين المجالات التى ساعدت فيها الإدارة البريطانية على إدخال المؤثرات الحديثة ، وتلك التى لم تصبها بكثير من التغيير ، والمجالات التى اعترضت فيها طريق التطور . والكتاب يعتمد على كثير من الأوراق الخاصة : أوراق جورست وتوماس رسل وهارى بويل وسولسبرى ومغنر ودابرنون وونجت وكرومر وجرانفل وادوارد جراى .

وتوفر مصر فى نظر المؤلف نموذجاً مثالياً لدراسة الاحتكاك الثقافى والتغيير اللذين طرآ فى ظل الحكم الاستعمارى ، وذلك بفضل ماتركه المستعمرون والمصريون على حد سواء من مادة تساعد على البحث التاريخى وعلى مقارنة أحوال مصر قبل الاحتلال البريطانى بما جد على البلاد بعد عام ١٨٨٢ . هذا الى التماثل الكبير الذى يتصف به التاريخ المصرى بوجه عام ، بحيث يسهل تتبع تطور المجتمع بقطاعاته المختلفة .

ويحاول المؤلف من ثنايا كتابه أن يدحض النظرية الماركسية الخاصة بالاستعمار ، من حيث أن هدفه الوحيد هو استثمار موارد المستعمرات . فهو يذهب إلى أن الحكومة البريطانية قررت احتلال مصر بسبب موقعها الجغرافى وحده لا جرياً وراء دوافع اقتصادية ، وهو يدلل على ذلك بتقرير دفرن المشهور الذى يعتبر مصر مورداً للمواد الخام أو سوقاً للمنتجات الخام أو سوقاً للمنتجات الأوربية أو لرأس المال الأوربى ، بل اعتبرها منطقة هامة بالنسبة إلى الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية — ومن ثم اهتمام البريطانيين بالمحافظة على النظام ومنع نشوب القلاقل مما انعكس فى كثير من أوجه النشاط الذى شهدته مصر فى ظل الاحتلال البريطانى كالتعليم والجيش والحركة الوطنية والإصلاح الاجتماعى وتضحيتهم ببرامج الإصلاح على مدى واسع رغبة منها فى المحافظة على النظام فى البلاد . كما أن المؤلف يدعم وجهة نظره هذه بالإشارة إلى أن كرومر لم يساند مصالح رجال فى مصر ، ومنهم بيت بيرنج الذين يمتو بصلة القرابة إلى كرومر ذاته .

وينهى المؤلف كتابه بتعميمين أساسيين فيما يتعلق بأوضاع مصر فى عام ١٩١٤ .

( أولهما ) أن المؤثرات البريطانية فى مصر كانت تتجه إلى تدعيم اتجاهات أنماط التطور القائمة ، دون أن يعمد البريطانيون إلى محاولة إجراء تغيير أسس التطور التى بدأت فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وإن يكونوا قد واصلوا إجراء تغييرات فى مجالات الرى وتصدير المحصولات النقدية وإصلاح الإدارة .

( ثانيهما ) أن نظم مصر لم تكن تنمو بصورة متماثلة ومنسجمة بحكم أن البريطانيين كانت تدفعهم مصالحهم الخاصة إلى تضييق التغيير فى مجالات معينة ، وحفز نموها فى مجالات أخرى . ويعزو المؤلف ذلك إلى طبيعة الاحتلال المؤقتة فى البداية وتبعية مصر للدولة العثمانية ووجود الامتيازات والجاليات الأجنبية وتبعية الإدارة البريطانية فى مصر لوزارة الخارجية لا لوزارة المستعمرات وعدم إيمان الانجليز الموجودين فى مصر بعالمية المثل العليا والنظم الغربية . فكثيرون منهم كانوا شديدى التشاؤم إزاء إمكانيات التطور فى داخل المجتمع المصرى ، متأثرين فى ذلك بقوة المجتمع التقليدى ومقاومته للتغيير وعدم قدرته على استيعاب وتطوير المؤثرت الحديثة فى نطاق القوالب القديمة . فلقد صرح الموظفون البريطانيون فى مناسبات عدة بأنهم يشعرون بإمكان استمتاع مصر بالرخاء الاقتصادى ، ولكن فى نطاق النظم السياسية والدينية التقليدية . كما أنهم اعتقدوا أن المؤثرات الغربية ستقتصر فى جوهرها على مستويات مرتفعة من الحياة وعلى قسط من الاستقرار السياسى ، وأن النظم السياسية الغربية وقيم الغرب القائمة على الفردية والاعتماد النفس ستزول بزوال الاحتلال البريطانى . وأخيراً فإنهم توقعوا استمرار السيطرة البريطانية على مصر عدة قرون ، ولهذا اعتقدوا أن بريطانيا ستكون لديها فرص أوسع لإجراء التغييرات اللازمة ، خاصة وأنهم لم يأخذوا الحركة الوطنية مأخذاً جدياً على اعتقاد أنها قاصرة على فئة قليلة من الديماجوجيين الساخطين .

وجملة القول فإن هذا الكتاب جدير باهتمام المشتغلين بتاريخ مصر الحديث .

* * *

ونختتم عرضنا هذا بكتاب أمينة طوغاى الذى سجلت فيه حياتها فى مصر وتركيا وأوروبا . وعرضت فيه لأسرتها فى مصر وتركيا فهى حفيدة الخديو إسماعيل والغازى أحمد مختار باشا — وقد أتاحت لها قرابتها من الأسرة المالكة المصرية فرصة لمعايشة الأرستقراطية التركية — المصرية والاطلاع على دقائق حياتها الداخلية خاصة وأن جدها كان يشغل مناصب هامة وقضى بعض الوقت فى مصر بصفته قوميسيراً عثمانياً فى أوائل فترة الاحتلال البريطانى ، وأن والدها ( محمود مختار باشا ) قد شغل وظائف هامة فى الجيش التركى . وأن زوجها عمل بالسلك الدبلوماسى التركى .

وترجع أهمية الكتاب إلى أنه يتناول قطاعاً من التاريخ التركى — المصرى لم يحظ بالاهتمام والدراسة حتى الوقت الحاضر فهو سجل لحياة الطبقات العليا فى الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحكم أن المؤلفة قد عاصرت كثيراً من العادات التركية « الراقية » التى أصبحت فى ذمة التاريخ بفعل الإصلاحات والتغييرات التى قام بها كمال أتاتورك والتى استهدفت طبع تركيا بالطابع العصرى على النمط الأوربى .

وفى ثنايا عرض المؤلفة لحياتها ولتاريخ أسرتها نجدها — كامرأة — تهتم بالطعام والملبس وأدوات الزينة ، وتستطرد فى سرد الحكايات و « الحواديت » وتستفيض فى وصف الحياة الداخلية للأرستقراطية التركية — المصرية والأفراح الخاصة بأبناء وبنات الخديو اسماعيل ( المعروفة باسم أفراح الأنجال ) .

ولما كانت الأرستقراطية التركية فى مصر على صلة وثيقة بالحياة فى العاصمة التركية حتى بداية الحرب العالمية الأولى . فإن اللغة التركية كانت لغة التخاطب لدى أفراد هذه الأرستقراطية وفى دوائر البلاط . إلى أن تغيرت الأوضاع بعد أن تزوج الملك فؤاد نازلى صبرى التى لم تكن متحمسة لإتقان اللغة التركية واستعمالها فى التخاطب ، مما دعا بعض أفراد أسرة محمد على الى التصريح — لدى وفاة الملك فؤاد — بأن « التقاليد القديمة » قد انتهت الى غير رجعة .

وتزيل المؤلفة كتابها بملحق عن أوضاع « العبيد » حاولت فيه أن تنفى

الاتهام الأوربي للمجتمعات الإسلامية فيما يتعلق بأوضاع الرقيق ـ فهؤلاء العبيد لم يكونوا من البؤس بالشكل الذى يتصوره المرء من مفهوم هذه الكلمة . بل إنهم كانوا يشكلون قطاعاً ملحقاً بالطبقة الأرستقراطية وله كيانه الخاص الذى لا ينزلق إلى مستوى العبودية بمعناها الحرفى بدليل أن كثيراً من الجوارى قد تزوجن بأفراد من علية القوم .

ورغم أن التفاصيل والذكريات الشخصية والاهتمام بالشئون النسائية تستوعب حيزاً كبيراً من الكتاب ؛ الا أن المؤلفة قد وفقت فى أن تجعل من حياتها الخاصة محوراً لوصف أوضاع قطاع من التاريخ التركى ـ المصرى لم يحظ بكثير من العناية وهو أوضاع الأسرة وعاداتها وتقاليدها .

**دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى**
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية لآداب — جامعة عين شمس